دعوة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ومراحلها الجزء الأول

كتبه غريب بتاريخ الخميس ١ شوال ١٤٤٢

عندما تحدثت عن الدعوة إلى اللّٰه عز وجل, وقلت أنها عبادة كسائر العبادات, طُلب بيان كيف دعا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم, أي الخطوات التي اتخذها في دعوة الناس إلى الإسلام, حتى ندعو الناس كما دعاهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم

لذلك قررت أن أجيب في هذه السطور, من خلال المحاور التالية

- مميزات دعوة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم
  a. الدعوة هي العبادة المتواصلة
  b. البصيرة
  c. الشعيرة الثابتة عند كل الأنبياء
- مراحل الدعوة
  a. إعلان الدعوة
  b. تكوين جماعة المسلمين سراً

مميزات دعوة رسول الله صلى الله عليه

إن الدعوة عبادة كسائر العبادات, لقوله سبحانه:

﴿ ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ ﴾

[النحل: ١٢٥]

وهي ليست خاصة برسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم, كما قد يتوهم البعض, فهي مسؤولية كل أتباع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم, لقوله سبحانه:

﴿ قُل هذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبحانَ اللَّهِ وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ ﴾

[يوسف: ١٠٨]

لذلك الدعوة توقيفية، يجب أن نقوم بها وفقا لمنهج رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حصرياً، وليس كما نتصور، وإليكم بعض أهم ما ميّز دعوة الحبيب صلى اللّٰه عليه وسلم

الدعوة هي العبادة المتواصلة

أول ميزة تميزت بها الدعوة هي كونها العبادة الوحيدة المتصلة الغير متكررة، التي بدأها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يوم بُعث، وخَتم يوم مات صلى اللّٰه عليه وسلم.

ولكي نفهم ما أقصد، أضرب مثلا بعبادة الصلاة، فهي عبادة متكررة، كل يوم نبتدئ صلاة الظهر مثلا، فنصلي أربع ركعات، ثم ننتهي منها، وهكذا مع بقية الصلوات.

كذلك الصوم، نبدأ الصوم من أول الفجر إلى الليل، وصوم رمضان نكرره كل سنة.

عبادة الدعوة تختلف عن العبادات الأخرى، بكونها متصلة غير منقطعة أو متكررة، إذا تعدى من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم منها مرحلة، لا يعود إليها أبداً، وهذا ما يغيب على الناس غالبا.

البصيرة

تمتاز شعيرة الدعوة بميزة أخرى تميزها عن بقية العبادات، ألا وهي كونها على بصيرة، والبصيرة هنا عامة وتشمل:

- البصيرة بحال المدعو
- البصيرة بما سيدعو إليه المدعو
- البصيرة بالظروف التي تُمارس فيها الدعوة

هذه الأخيرة هي التي تتحدد عليه مرحلة الدعوة المناسبة.

بمعنى أن الدعوة تتغير من مرحلة إلى أخرى، بتغير الظروف المحيطة بها، فكما أن مراحل الصلاة من قيام وركوع ينتقل بينها المصلي بعد انتهاء كل مرحلة.

فإن مراحل الدعوة ينتقل بينها الداعية بحسب تغير الظروف المحيطة, مما يعني أن الداعية يلزم مرحلة معينة, حتى تتغير الظروف المحيطة, فينتقل إلى المرحلة الجديدة, بحسب الظرف الجديد.

الشعيرة الثابتة عند كل الأنبياء

مما يميّز شعيرة الدعوة, كونها الشعيرة الثابتة عند كل الأنبياء, وهذا عليه أدلة كثيرة منها قوله سبحانه:

‹ كَذَّبَت عادٌ المُرسَلينَ ›

[الشعراء: ١٢٣]

فعاد لم يرسل إليهم غير نبي الله هود صلى الله عليه وسلم, ومع ذلك قال ربنا عز وجل أنها كذبت المرسلين, لأن الرسل كلهم لهم نفس الدعوة, ونفس الأسلوب, وحتى نفس الخطاب.

وزيادة على ما سبق, إنما علّم ربنا عز وجل المؤمنين الدعوة من خلال سرد قصص الأنبياء من قبل:

‹ فَاصبِر كَما صَبَرَ أُولُو العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعجِل لَهُم كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَ ما يوعَدونَ لَم يَلبَثوا إِلّا ساعَةً مِن نَهارٍ بَلاغٌ فَهَل يُهلَكُ إِلَّا القَومُ الفاسِقونَ ›

[الأحقاف: ٣٥]

هذا يعني أننا نجد في الوحي بيان شعيرة الدعوة في جميع مراحلها, فهناك أنبياء لم يتجاوزوا المرحلة الأولى نتيجةً لتكذيب أقوامهم, فلم يُكوِنوا جماعةً للمسلمين, ولم يقاتلوا في سبيل الله, لأنهم لم يصلوا لتلك المرحلة, فأقوامهم كذبوهم, واضطهدوهم, ومن أمثلتهم نوح, وهود, وصالح, وشعيب, وإبراهيم, ولوط, صلى الله عليهم أجمعين وسلم.

كما نجد أنبياء قاتلوا في سبيل الله وأقامو الدين في الأرض, نتيجة لكونهم كانوا في جماعة من المسلمين, ولهم كيان مستقل كما سوف نرى إن شاء الله في الجزء الثاني من هذا البحث, ومن أمثلتهم داوود, وسليمان, ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم.

مراحل الدعوة

بعد معرفة ما سبق من مميزات الدعوة, وبالنظر في سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم يمكن معرفة مراحل الدعوة والتي هي:

إعلان الدعوة

يعتقد كثير من الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ الدعوة سراً, أي أنه كان يخفي دينه, ولا يدعو إلا من يثق فيه.

ولكن إذا رجعنا للوحي فإننا نجد أمرين:

- الأول غياب نص ينص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو سراً بالمفهوم السابق, أي أنه يكتم دينه, ولا يدعو إلا من يثق فيه
- ثانيا أن هذا ليس أسلوب الأنبياء الذي أخبرنا الله عنه, فالأنبياء كانوا يوجهون دعوتهم إلى أقوامهم علناً ومنذ اللحظة الأولى, فموسى صلى الله عليه وسلم بدأ أول ما بدأ, بدعوة فرعون مباشرة.

لذلك فكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخفي دينه, ولا يدعو إلا من يثق فيه, لا تقوم عليها حجة.

إذا رجعنا للوحي نجد الحديث الصحيح التالي:

عن سعيد بن جبير, عن ابن عباس, رضي الله عنهما, قال:

«لما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين), خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه, فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه, فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل, أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا, قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد, قال أبو لهب: تبا لك, ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام, فنزلت: (تبت يدا أبي لهب وتب وقد تب)».

هكذا قرأها الأعمش يومئذ

البخاري ٤٩٧١

وفي رواية: «لما نزلت: {وأنذر عشيرتك الأقربين}

صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولا، لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي، تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب} »

البخاري ٤٧٧٠

فالذي يظهر من هذا الحديث أن أول إعلان للدعوة من طرف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل مكة، كان هذا الموقف، بدليل قول أهل مكة له:

نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً

لأنهم بعد أن بدأ يدعوهم اتهموه بالكذب، وقالوا ساحر كذاب، لذلك أقول كان هذا أول إعلان للدعوة في مكة.

أي أن أول مرحلة من مراحل الدعوة هي السعي في إعلانها على أوسع نطاق، فرسول الله صلى الله عليه وسلم دعا جميع بطون قريش الذين هم أهل مكة.

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كسر الآلهة وترك كبيرهم حتى يتمكن من جمع كل الناس وإيصال الدعوة لهم.

تكوين جماعة المسلمين سراً

بعد إعلان الدعوة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يسمى مرحلة الدعوة السرية، وهذه المرحلة لا يسر فيها هو بالدعوة، وإنما يسر فيها بإسلام من أسلم.

بمعنى أنه إذا دعى شخص للإسلام وأجاب، أمره بأن يكتم إسلامه، هذا مع العلم أن المسلم الجديد يدخل في جماعة المسلمين بمجرد إسلامه كما ناقشنا في مقال متى كوّن رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة المسلمين.

في هذه المرحلة لم يكن يظهر على الواجهة غيره صلى الله عليه وسلم، والذي كما يبدو من قوله سبحانه:

› عَبَسَ وَتَوَلّى۝أَن جاءَهُ الأَعمى۝وَما يُدريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّى۝أَو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكرى۝أَمّا مَنِ استَغنى۝فَأَنتَ لَهُ تَصَدّى۝وَما عَلَيكَ أَلّا يَزَّكّى۝وَأَمّا مَن جاءَكَ يَسعى۝وَهُوَ يَخشى۝فَأَنتَ عَنهُ تَلَهّى ‹

[عبس: ١-١٠]

أنه كان مركزا على سادات قريش الذين يتبعهم الناس، كما أن سادات قريش لم يبدؤوا بمحاربة الدعوة بعد، لذلك تمكن هذا الأعمى من المجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يصده أحد.

كانت الدعوة في هذه المرحلة تركز على محورين:

- الأول دعوة المشركين إلى الإسلام أفرادا وجماعات
- تربية من أسلم بالقرآن، وذلك من خلال الاجتماع في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقيام الليل الطويل الذي أمروا به في قوله سبحانه:

› يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ۝قُمِ اللَّيلَ إِلّا قَليلًا۝نِصفَهُ أَوِ انقُص مِنهُ قَليلًا۝أَو زِد عَلَيهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتيلًا۝إِنّا سَنُلقي عَلَيكَ قَولًا ثَقيلًا۝إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيلِ هِيَ أَشَدُّ وَطئًا وَأَقوَمُ قيلًا۝إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبحًا طَويلًا۝وَاذكُرِ اسمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّل إِلَيهِ تَبتيلًا ‹

[المزمل: ١-٨]

هذه المرحلة هي مرحلة الإعداد النفسي للمرحلة التي تليها، وقد استمرت حتى صار المسلمون جماعة لا يمكن لقريش إبادتها.

في الجزء الثاني من هذا البحث سوف نناقش المراحل التالية:

a. الجهر بجماعة المسلمين
b. البحث عن مهاجَر
c. الهجرة
d. صلح الحديبية
e. دعوة أهل الأرض